Archive of SID

إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة السادسة ـ العدد الرابع والعشرون ـ شتاء ١٣٩٥ش/كانون الأول ٢٠١٦م
صص ١٢٤ ـ ١٠١

قراءة سوسيولوجية فى تجديد أبى نواس الشعرى

آزاده منتظرى (الكاتبة المسؤولة)*

الملخص

أبونواس حسن بن هانئ، الشاعر الإيرانى (١٩٦ق) يعدّ من كبار شعراء العرب وعباقرته على الإطلاق، ومحاولاته التجديدية فى الشعر من القضايا الأدبية الكبرى التى أثارت دراسات أدبيةونقدية على مرّ العصور. قد ذكرت أسباب شتّى لهذه الظاهرة الأدبية الهامة فى مختلف المصادر والمراجع، ولكن هذا البحث قام باستقصاء دعوة أبى نواس التجديدية من منظور سوسيولوجيا الأدب، واستهدف دراسة أحكام هذه المنهجية الحديثة من خلال المقدمات الطللية فى بعض المدائح النواسية وقياسها بالعناصر المستحدثة فى فواتح بعض قصائده الأخرى، مضافاً إلى معالجة أسباب ظهور هذه النزعة الأدبية فى تلك الفترة التى عاش فيها أبونواس. لقد تناولت هذه المقالة أشعار أبى نواس على المنهج الوصفى التحليلى، وقد وجدت أنّ تجديد أبى نواس الشعرى جاء إثر نزعته الشيعية المبنية على مواقف الرفض والثورة، والتناقضات الموجودة فى العصر العباسى الأول التى سادت من خلال نشوء الطبقات الاجتماعية الجديدة، والتغيّرات السريعة التى حدثت جرّاء امتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأخرى كما ليس ينبغى أن يُهمل دور تضّاد القيم والمعايير الاجتماعية القديمة والحديثة، وعدم تطابق الإيدئولوجية القديمة والظروف الراهنة، وعدم توافقهما عند المثقفين فى المجتمع العباسى آنذاك.

الكلمات الدليلية: أبونواس، العصر العباسى الأول، النزعة التجديدية الشعرية، سوسيولوجيا الأدب، النقد الاجتماعى.

---

*. أستاذة مساعدة فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة قم، قم، ايران
azade.montazeri@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٥/٥/٢ش تاريخ القبول: ١٣٩٥/١١/٥ش

www.SID.ir

Archive of SID

المقدمة

إنّ الأدبـاء والفنّانـين هم أبناء بيئتهم؛ منها ينهلون ويتناولون ويغرفون وفيها تشـع إنتاجاتهـم وتتدفق إبداعاتهم، والعلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسـكة حيث يسـمّى الأدبُ مـرآة المجتمع، فلا ينتج أدب إلّا فى الجماعـة ومتأثراً بها، إذ إن الأديب لا يكتب نصاً ليتمتّع به وحدَه دون الآخرين، ولا يقول شعراً ليسمعه وحدَه، ولا يقتبس صُوره وقيمَه إلاّ من الثقافة التى تلقّاها منذ الصغرواكتسـبه من تجاربه فى بيئته، ومن المستحيل أن يشعر بالرضى والراحة إلاّ عندما يجد من يقرأ نصه أو يستمع إليه أو يواجه من يتمتع بالفن فيشاركه فى أحاسيسه المبدَعة.

ضرورة البحث وأهدافه

لا يخفى على أى باحث فى الأدب العربى أن أهمية الشـعر عند العرب بالقياس إلى الفنون الأدبية كبيرة لا يمكن مقارنتها بأىّ فنّ أدبى آخر، فقد كان من أهميته أنهم اعتبروا الشـعر ديوانهم الذى سـجّلوا فيه مآثرهم ومفاخرهم وأخبارهم وأيامهم. ولاسيما إذا كان «الشـعر فى العصر العباسـى الذى يعدّ أطول العصور الأدبيـة زمناً وأكثرها تقدّماً وتفنناً وحضارةً ولأنّه العصر الذى نبغ فيه من الشعراء الكبار الذين لا يطاولهم شاعرٌ فى عصر آخر.» (السامرايى، ١٤٢٦ق: ٤) منهم أبونواس (١٩٦ق) الذى عُرف فى "طبقات الشـعراء" بأنّه كان «عالماً فقيهاً، عارفاً بالاحـكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسـخ القرآن ومنسـوخه ومحكمه ومتشابهه، وقـد تـأدّب بالبصرة، وهى يومئذٍ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً، وكان أحفظ لأشـعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين.» (ابن المعتز، ١٩٧٨م: ٢٠١) مضافاً إلى ذلك كلّه أن الباحثـين قد اعتبروا أبانواس زعيم الثورة التجديدية رغم اختلافهم فى تحديد أبعاد هذه الثورة، وسعتها ومدى تأثيرها فى فن الشعر العربى بصورة عامة.

وثمّـة قراءات عديدة تكمن فى كل نـص أدبى مصوغ فى برهة من العصور التاريخية، والشـعر القديم لا يعـنى بالياً ولا متخلّفاً بل هو «الشـاهد الحاضر والحى على الدوام لتقديم مـا تحتزنه صورته الفنية مـن معلومات ومعطيات، وظواهر نفسـية واجتماعية

www.SID.ir

Archive of SID

وفكرية وطبيعيــة واقتصادية ودينية؛ وبمعنى آخر هو وثيقــة ذاتية وموضوعية لصاحبه وبيئته وعصره.» (جمعة، ١٩٩٨م: ٢٥)، وليس من الصواب اعتبار أن المناهج والآليات الحديثــة تتطلب الإنتاجات الأدبيــة الحديثة بحتاً، بل توجد فى الأعمال القديمة طاقات كثيرة لمثل الدراسات التى تُلبس على قامتها الجدّةَ والطراوةَ. ومن هذا المنطلق تستهدف هذه المقالة إلى اســتقصاء تجديد أبى نواس الشــعرية من منظور سوســيولوجيا الأدب ويعــالج هذه النزعة الشــعرية وجوانبها، وقد يكشــف عمّا تبــدو فى الوهلة الأولى من البديهيات، لكنّها تضمر فى خفاياها حقائق كثيرة.

خلفية البحث

أجــرى عن خروج أبى نــواس على مبادئ الشــعر الجاهلى،كثيرٌ من الدراســات والبحوث منذ القديم إلى زماننا الراهن، من أحدثها: مقالة "أبونواس بين مطرقة الحكام وســندان التاريــخ" لـ"هادى پور نهزمى" (١٣٩٠ش) المطبوعــة فى مجلة " أدب عربى" المحكمة؛ مقالة "أبونواس بين نقادة القدامى والمعاصرين" لعبدالغفور (١٩٨٠م) المطبوعة فى كلية الأداب بجامعة بغداد؛ كتاب "أبونواس بين العبث والاغتراب والتمرّد" لـ"الزعيم (١٩٨١م)، وكتاب "حركة الشــعر العباســى فى مجال التجديد بين أبى نواس ومعاصريه" لـ"خريس"(١٩٩٤م). ولا يوجد فى هذا المجال كتاب أو مقالة مستقلة قد قامت بدراسة القضايا الاجتماعية المرتبطة بالنزعة التجديدية النواســية رغم أننا قد نواجه اشارات عابرة مبعثرة فيما يخصّ بأبى نواس وثورته الشعرية.

منهج البحث

هذا البحث يســلّط الضوء على الجوانب الاجتماعية لنزعة أبى نواس التجديدية فى الشــعر معتمداً على منهج سوسيولوجيا الأدب، فيقوم بتحليل ظاهرة التجديد فى الشعر العباسى نشأتها وتطوّرها ويستقصى أهم مؤثراتها السوسيولوجية وما يتعلّق بها.

نبذة عن سوسيولوجيا الأدب

ظهر أول الدراسات فى سوسيولوجيا الأدب، فى القرن التاسع عشر فى كتابات "مدام

www.SID.ir

Archive of SID

دى ستيل" لدى دراستها الأدبَ من حيث علاقاته بالمؤسسات الاجتماعية ثم جاء "كارل ماركس"، وهو أول من أعطى تفسيراً موضوعياً للعلاقة بين الأدب والمجتمع، وعين لها موضوعاً داخل مجموعة العلوم الاجتماعية، واعتبر أن الأدب واقعة اجتماعية تاريخية نسبية، وإن الكاتب يعبّر فى اعماله عن وجهة نظر الطبقة التى ينتمى إليها بوعى أو بغير وعى، ووافقه لوكاتش على مقدماته، ثم جاء "غولدمن"، وهما متفقان على توجيه الرواية نحو الدراسة السوسيولوجية. (حجازى، ٢٠٠٧ م: ١٤٠) والذين جاؤوا بعد هؤلاء قد جعلوا سائر الأنواع الأدبية مثل الشعر مجالاً مناسباً لهذه الدراسة، مع هذا لا تزال تخصص الرواية سهماً أوفر من هذه الدرسة لنفسها بالنسبة إلى الشعر.

وقد نجد فى فكر ابن خلدون جذوراً للنظرية الاجتماعية فى الظاهرة الأدبية وقد تمثّلت هذه الجذور عنده فى أمرين: «الأول: هو نظرة ابن خلدون للشعر بوصفه نشاطاً إنسانياً يوجد فى كل لغة، وله أسباب تخصّه وشروط لأحكام صياغته؛ والثانى: هو ربط ابن خلدون بين أحوال الأدب والأدباء وبين أطوار الدولة، نشأتها وازدهارها ثم اضمحلالها.» (ابوشقراء، ٢٠٠٥م: ٢٤ نقلا عن ابن خلدون، المقدمة: ٤٧٢)، فلا ريب أن للنوعية المجتمع والسلطة دور هام فى تحديد القضايا الأدبية وما تستوعبه.

النزعة التجديدية نشأة وتطوّراً

قد عُرف العصر العباسى الأول بالثورة التجديدية فى الشعر، وأسبابها ما اقتصرت على أسباب أدبية بحتة، كما لا تختص مؤثراتها ونتائجها بحقل الأدب فحسب بل تتعداه إلى المجتمع ومجالاته العديدة؛ فإن الأدب ليس بمعزل عن الحياة الاجتماعية وما تقتضيه حياة كائن اجتماعى، وهو إنسان.

و إذ إن لا تحدث أى ظاهرةٍ دفعةً واحدة بل تتدخّل فى حدوثها وتطورها أسباب وعوامل شتّى منذ سنين عديدة، فليس من الصواب أن تُدرس النزعة التجديدية الشعرية فى العصر العباسى الأول بمعزل عن تطوّرها وبواعثها فى العصور السابقة. وقد وصف بروكلمان تطوّر الحركة التجديدية، قرب نهاية الدولة الأموية، أى فى الأوائل القرن الثانى للهجرة قائلاً: «كانت قالب القصيد -كما هو معروف فى الشعر الجاهلى – قد صار

www.SID.ir

Archive of SID

طرازاً قديماً بالياً فى أواخر عهد الدولة الأموية، فلم يقو على مسايرة العصر لقد كانت مواده ومعانيه المتوارثة المحدودة فى نطاق ضيق، مرتبطة بحياة البادية، فلم تعد تتفق مع الروابط والصلات الجديدة التى تختلف عن علاقات البادية اختلافا كلياً، والتى قامت بين السكان المختلطين من العرب والعجم فى المدائن الكبيرة التى غدت مراكز الحياة العقلية، وهكذا انحلّ عمود الشعر، فما كان من فقرات القصيد القديم صالحاً للحياة بعد تناوله كبار الشعراء فى هذا العصر، فصاغوا منه أنواعاً مستقلة من الشعر كالخمريات والغزل والطرديات وغير ذلک.» (بروكلمن، ١٩٦١م: ٩/٢)

والمقدمات الطللية صارت صفحة من حياة الناس فى العصر الجاهلى، فالشعر الجاهلى مرآة الحياة العربية، والصورة الصادقة لعادات العرب وتقاليدهم ومُثُلهم بغضّ النظر عن القيم الفنية والصور الجميلة الرائعة والمعانى الدقيقة، وإن الأطلال وصاحبة الأطلال ورحلتها فى أعماق الصحراء وغيرها من الخصال الإنسانية كالجود والكرم والحبّ والوفاء – التى هى من مقتضيات حياة العرب القبلية والمنتقلة بين مختلف الأودية والصحارى للتغلّب على الفناء ومواجهة قسوة الحياة – فهى صارت بمثابة القيم والمعايير الاجتماعية – الأدبية للحياة الجاهلية والشعر القديم.

وهذه الفكرة تنطبق رأى "مدام دوستال" من أوائل روّاد علم اجتماع الأدب إذ تقول «إنّ الأدب يتغير بتغير المجتمعات، ويتبدّل بتبدّلها، ويتطوّرحسب تطور الأوضاع الاجتماعية، ومن هنا رأت أنه أصبح من الضرورى بعد قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ظهور أدب جديد يعبّر عن مجتمع ما بعد الثورة، ويختلف كثيراً عن أدب ما قبل الثورة، وصار لزاماً على النقد أن يحوّل سوأله من "كيف يكتب الأدباء؟" إلى "عن ماذا يكتبون؟".» (بركات، ٢٠٠٤م: ٤٩)

فإن كل مجتمع يتميز أدبه عن مجتمع آخر إذ إنّ الثقافات والتقاليد والأعراف تتعددّ وتتكثّر بعدد المجتمعات، والتغيرات التى تطرأ على حياة الناس فى العصور المختلفة يترک تأثيرها فى الحياة الأدبية لهؤلاء الناس أيضاً، وبما أن الأدب يقتضى التكيف مع روح العصر ومسايرتها للحياة الاجتماعية فليس له إلا أن يتغير بتغير المجتمع أو العصر، إذن الحياة الجاهلية تتطلّب أدباً لا يلاءم الأدب الأموى أو العباسى والحياة

www.SID.ir

Archive of SID

الحضرية تتطلّب أدباً لا يلاءم الأدب الجاهلى، فذلك شـأن أدب كل مجتمع، ولا يقتصر على المجتمع العربى.

ولم يكـن أبونواس أول مـن دعا إلى التجديد، فقيل إن الكميت بن زيد الأسـدى، صاحب الهاشميات وشـاعر الشـيعة فى العصر الأموى، هو أول مـن رفع صوته لترك الوقـوف على الديار العافية بدافع دينىّ، وهو حبّه لأهل البيت (عليهم السـلام) حيث يقول فى مطلع قصيدته:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا منى وذو الشـيب يلعب

(هدارة، ١٩٦٣م: ١٤٤)

ونجد أيضاً قرب نهاية الدولة الأموية، فى بداية القرن الثانى حركة تجديدية، من أبرز شعرائها مطيع بن أياس وحماد عجرد من شعراء الكوفة، ولا ننكر تأثير الوليد بن يزيد فى تشـجيع هذه الحركة واستمرارها وقوتها وإن تأثر بهما فى شعره التجديدى. (المصدر نفسه، ١٩٦٣م: ١٤٥-١٤٨)

فأخذت حركة التجديد تتسرّى فى مطلع القرن الثانى، ويثور على عمود الشعر القديم ومنهجه وقوالبه، وممّا أعان هذه الحركة بجانب الأسباب التى ذكرناها من قبل، هو ظهور طبقـة جديدة فى المجتمع من ناحية جنسـها وثقافتها إذ كانـت مزاجاً بين العرب وبين الأجناس الأخرى التى دخلوا تحت راية الإسلام فى بداية القرن الثانى.

وهـذه الطبقـة الجديـدة المولّدة - التى يمكننـا أن ندرجها فى ضمـن الطبقة المثقفة للمجتمع العباسـى - كانت لها خصائص نفسية وطرائق تفكير تختلف بالعادة عن العرب الخلّص الذين كانوا يحملون لواء الشـعر دون منازع حتى حدود نهاية القرن الأول، أمّا فى البداية القرن الثانى فقد ظهر هؤلاء الشعراء المولّدون الذين كانوا يجيدون العربية فى معظم الأحيان بجانب لغاتهم الأخرى، فكانت ثقافة اللغتين تمتزج فى نفوسـهم امتزاجاً قوياً، فتولّدت عن هذا الامتزاج روح جديدة لا تنظر إلى التراث الشـعرى القديم نظرة التقديـس والتعظيم كما كان العرب الأصيل ينظـر إليه، ولم تعد تلك القوالب الجاهلية القديمة تثير عواطفهم أو تربطهم بإحساس أو عاطفة ما، فانعدمت الرابطة العاطفية بين هؤلاء الشعراء الجُدد وبين معالم الحياة العربية الجاهلية بما فيها من الأطلال والخيام وما

www.SID.ir

Archive of SID

إلى ذلک، فلم توافق رؤيتهم وما كان سائداً فى مجال الأدب، فأدّى ذلک إلى الجدلية بين القيم والمعايير التى كانت سائدة فى المجتمع العباسى وما قائماً فى مجال الشعر والأدب.

وهذه الواقعية الاجتماعية – الأدبية تتّفق ما قاله "هيپوليت تين" فى ثلاثيته المشهورة التى استند بها فى نظريته الاجتماعية؛ إنّ البيئة أو الوسط، الجنس أو العرق، اللحظة التاريخية أو العصر هى عناصر لا يمكن فهم العمل الأدبى وتفسيره ونقده دونها، لأن العمل الأدبى ليس مجرد نوع من عبث الخيال الفردى، بل إنّه يعكس بعض الحقائق والانفعالات المحددة والقابلة للتمحيص (عزيزالماضى، ١٩٨٦م: ٨١) ومع أنّه لا تقبل نظريته بأسرها لكنّها تدلّ على أن المولّدين قد تأثّروا فى اتخاذ موقفهم التجديدى فى الأدب بالبيئة والعصر وكذا الجنس باعتبارهم أجناس غير العرب الذين يعيشون فى البيئة العربية تحت لواء الحكم العباسى.

فغدا ظهور هؤلاء الشعراء قوة دافعة شديدة للحركة التجديدية فى الشعر فى أواخر العصر الأموى، وتواصلت بقوة أكثر فى العصر العباسى الأول لشدة الدوافع والمؤثرات الاجتماعية فى هذه الفترة من نفوذ البرامكة الفرس فى نظام الحكم العباسى وتصرفهم فى الشؤون المالية والاقتصادية للحكومة وما إلى ذلک. فإن تغير الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية فى العصر العباسى الأول دفع كثيرا من الشعراء إلى التمرّد والإحساس بالاغتراب إزاء بروز العناصر الجاهلية فى الشعر العباسى، فقد برزت هذه الظواهر بروزاً جلياً فى أشعارهم. (الشتيوى، ٢٠٠٤م: ٨٥) والحق أنّ حركة التجديد ظهرت بوادرها القوية الأولى فى شعر بشار بن برد حيث كاد يجمع النقاد على أن بشار زعيم المولّدين ورأس المحدثين وكبيرهم رغم اعترافهم بتقدّم أبى نواس وتفوّقه على معاصريه (الزبيدى، ١٩٦٦م: ٤٥) بيد أن أبانواس باعتباره واحداً من المولدين يعبرّ تعبيراً صادقا عن ذلک الشعور الذى كان يخالجه هو وأمثاله من المولّدين حيث يقول:

ما لى بِدارٍ خَلَت مِن أَهلِها شُغُلُ وَلا شَجانى لَها شَخصٌ وَلا طَلَلُ
وَلا رُسومٌ وَلا أَبكى لِمَنزِلَةٍ لِلأَهلِ عَنها ولِلجيرانِ مُنتَقَلُ
وَلا قَطَعتُ عَلي حَرفٍ مُذَكَّرَةٍ فى مِرفَقَيها إِذا اِستَعرَضتَها فَتَلُ

www.SID.ir

Archive of SID

بَيــداءَ مُقفِــرَةً يَومــاً فَأَنعَتهــا   وَ لا سَري بِی فَأَحكيكِ بِها جَمَلُ
وَ لا شَــتوتُ بِها عامــاً أَدرَكَنی   فيها المَصيفُ فَلی عَن ذاکَ مُرتَحَلُ
وَ لا شَــدَدتُ بِها مِن خَيمَةٍ طُنُباً   جاری بِها الضَبُّ وَالحِرباءُ وَالوَرَلُ
ما بَينَ رَبعٍ وَلا رَسمٍ وَلا طَلَلِ   أَقوَي وبَينی فی حُكمِ الهَوی عَمَلُ
لا الحَزنُ مِنّی بِرَأیِ العَينِ أَعرِفُهُ   وَلَيــسَ يَعرِفُنی سَــهلٌ وَلا جَبَلُ
لا أَنعَتُ الرَوضَ إِلّا ما رَأَيتُ بِهِ   قَصراً مِنيفاً عَلَيهِ النَخلُ مُشتَمِلُ

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٢٦٠/٣)

فقد دعا أبونواس بقوة إلى التجديد فی عمود الشعر، وجهر بهذه الدعوة، إذ هو وجد إنّ اســتدعاء العناصر الجاهلية فی أدب مجتمعه الحضــری ينافی ما ظهر فی المجتمع من ضروب الطرب وألوان الحضارة، فهو نقد معظم عناصر البداوة الشــعرية التی لا تعكس فی الأدب واقع الحياة التی يعيشــونها ويحيونها، ولا تُبدی ما حدثت فی هذه الحياة من التغييرات المبدئية فی مســتوی معاش الناس وثقافتهــم وحضارتهم وما يكون فيها، بل هی غير واقعيةٍ ملتصقة إلى ماضيها.

الف- عناصر الحياة الجاهلية فی الشعر النواسی

أدركنا مما ســبق أن ظاهرة المقدمة الطللية قد نشــأت مرتبطــة بالبيئة ونوع الحياة والحضارة فيها، وإن هی لم تتّخذ شــكلا واحداً بل تعددّت أشــكالها وتنوعّت صورها، فالشــعراء العباسيون أخذوا يغيرون فی شكل المقدمة الطللية، بل لقد استحدثوا أنواعاً من فواتح المقدمات استمدّوها من بيئتهم المتحضرة وحياتهم المترفة، فحذفوا كثيراً من عناصرها البدوية المتصلة بالبيئة الصحراوية.

ولكن هذا الكلام لا ينطبق على جميع الشعراء فی العصر العباسی، وعلى سبيل المثال فلمروان ابن أبی حفصة الكثير من المدائح التی التزم فيها بوصف الأطلال وصفا بدوياً (عطوان، ١٩٧٤م: ٤٠٦) إضافة إلى عدد من الشعراء الآخرين الذين ما برحوا يصرّون على القصيدة العربية، فوقع نزاع بينهم ومن يخالفهم أو بعبارة أخرى النزاع بين أصحاب الجديد والقديم. ومن الشــعراء الذين أسهموا ســهماً كبيراً فی الثورة الشعرية فی العصر

www.SID.ir

Archive of SID

العباسى الأول، فهو أبونواس إذ دعا دعوة حادّة إلى نبذ الحياة البدوية وما فيها من العادات والتقاليد ثم التعبير عن الحياة الحضرية ومظاهرها.

ومهما يكن من شئ فما نسمّيه من هذه المفاهيم بعناصر الحياة الجاهلية أو الحياة البدوية أو عناصر الشعرية القديمة، لانقصد إلّا مفهوماً واحداً، ومن تلك العناصر ما تلى:

الأطلال والربوع: وما يتعلق بها من هبوب رياح الجنوب عليها:

دَعِ الأَطلالَ تَسفيها الجَنوب وَتُبلى عَهدَ جِدَّتِها الخُطوبُ

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٣/ ٥٤-٥٥)

وطلب نزول المطر عليها:

سَقياً لِغَيرِ العَلياءِ وَالسَنَدِ وَغَيرِ أَطلالِ مَيَّ بِالجَرَدِ

وَيا صَبيبَ السَحابِ إِن كُنتَ قَد جُدتَ اللِوى مَرَّةً فَلا تَعُدِ

لا تَسقِيا بَلدَةً إِذا عُدَّتِ الـ بُلدانُ كانَت زِيادَةَ الكَبِدِ

(المصدر نفسه: ١٠٩-١١١)

والبكاء عليها:

لاتَبكِ رَسماً بِجانِبِ السَنَدِ وَلا تَجُد بِالدُموعِ لِلجَرَد

(المصدر نفسه: ٣ /١١٥)

أو:

فَذاكَ خير مِنَ البُكاءِ عَلى الـ رَبعِ وَأَنمى فى الروحِ وَالجَسَدِ

(المصدر نفسه، ٣: ١٠٩-١١١)

والحمى: موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى: وَلا تُعَرِّج عَلى حِمَى عَرَجٍ.

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٣/ ١١٥)

والنؤى: مجرى يحفر حول الخيمة أو الخباء يحفظها من السيل حيث قال فى الشطر الثانى:

والنُؤى كالحوض بالملا الجَلَدِ (المصدر نفسه: ٣ /١١٥)

والخيام واتصالها بالأوتاد:

www.SID.ir

Archive of SID

وعـدِّ عنهـا إلى دسـاكرَ لم تُربَـط بهـا خيمـةٌ إلى وَتَـدِ

(المصدر نفسه: ٣/ ١١٥)

الإبل مع أنواعها:

وَخَلِّ لِراكِـبِ الوَجناءِ أَرضاً تَخُبُّ بِهـا النَجيبَـةُ وَالنَجيبُ

(المصدر نفسه: ٣/ ٥٤)

النباتات البدوية:

بلادٌ نَبتُها عُشَرٌ وَطَلحٌ

(المصدر نفسه: ٣/ ٥٥)

وَنَحـنُ بَـينَ بَسـاتينٍ فَتَنفَحُنا ريحُ البَنَفسَجِ لا نَشرَ الخُزاماءِ

(المصدر نفسه: ٣/٢١)

الصيد

وَأَكثرُ صَيدِهاضَبعٌ وَذيبُ (المصدر نفسه: ٣/ ٥٥)

أسماء العربيات:

دَعِ الرَبعَ ما لِلرَبعِ فيكَ نَصيبُ وَما إِن سَـبَتنى زَينَبٌ وَكَعوبُ

(المصدر نفسه: ٣/ ٥٦)

أو:

لا تَبكِ لَيلى وَلا تَطرَب إِلى هِندِ (المصدر نفسه: ٣/ ١١٢)

تشاؤماتهم الخرافية: وخصّ الغرابُ غالبا بالتشاؤم.

إِن أَتَحَـرَّز مِـنَ الغُـرابِ بِها يَكُـن مَفَرّى مِنـهُ إِلى الصُرَد

(المصدر نفسه: ٣/ ١١٠)

وَالعَـن غُرابَ البَـينِ بَغضاً لَهُ فَإِنَّـهُ داعـيَـةُ الشـؤمِ

(المصدر نفسه: ٣/ ٢٨٥)

النظام القبلى:

راحَ الشقيُّ على دارٍ يسائلُها ورحتُ أسـألُ عن خمّارةِ البلـدِ

يبكى على طللِ الماضين من أسَدٍ ... اُمّكَ قل لى مَن بنـو أسد؟

www.SID.ir

Archive of SID

ومَن تميم ومَن بَكرٌ سُـقُوا مُهُلاً ليس الأعاريبُ عند اللهِ من أحدِ

(المصدر نفسه: ٣/ ١١٥-١١٦)

يسـمّى أبونواس الشاعرَ المقلّد بالشـقى، إذ إنه لا يستطيع فى شعره أن يعيش واقع الحضارة الحديثة بل لا يزال يقلّد القدماء دون أن يصبّ فى شـعره أحاسيسـه الصادقة التى تنبعث من واقع الحياة، ولا يزال يتحدث عن القبائل العربية المنسـوخة فى النظام الحضرى والمدنى، ولقد بلغت النزعة التجديدية من خلال هذه الأبيات مبلغاً جعلت أبا نواس يعجز عن الاستماع إلى الشعراء الذين يصفون الأطلال والمنازل الخالية، ويدعو عليهم.

ويبدو أن الشـاعر لايقصد هجو القبائل العربية على وجه التحديد بل أراد أن ينقد النظام القبلى القائم فى المجتمع العربى القديم قائلا:

ما شئتُ من بلدٍ دانٍ منازهُهُ لكنّ فيه قبيلاتٍ وأفخاذاً

(المصدر نفسه: ٣/ ١٣١)

فنلفى أبانواس كانّه وقع فى دائرة التناقض؛ يرى بعينيه المتنزهات المتنوّعة والمتكثرة والمنفتحـة التى تدلّ على حريـة مجتمعه من جانب، ومن جانـب آخر يصادف العرب ينظرون إلى أنسابهم القبلية بنظرة عصبية واحتقار للآخرين، فليس هذا برأيه إلاّ حاجزاً يحول دون تحقيق الإنسانية بأكملها.

وربمـا هو ردّ فعل لِما على الموالى بأن يقوموا به فى الحضارة الجديدة، وهو انتمائهم بقبيلـة عربيـة، وقد يمكننا بأن نتلقـى ترددّ أبى نواس بين مختلف الأنسـاب من اليمنية والنزارية وغيرها دليلاً على قولنا، وكأنه ينظر إلى هذا السـلوك نظرة استهزاء، فليس لنا أن نوجّه إليه سـهام الاتهام بالنزعة الشـعوبية التى نتحدث عنها بالتفصيل فى مجال آخر.

مشروباتهم من اللبن والحليب:

ذَرِ الأَلبانَ يَشرَبُها رِجـالٌ رَقيقُ العَيشِ عندهم خَصيبُ

إِذا رابَ الحَليبُ فَبُل عَلَيهِ وَلا تُحرَج فَما فى ذاكَ حُوبُ

(المصدر نفسه: ٣/ ٥٥)

www.SID.ir

Archive of SID

هذه كانت عدة من العناصر البدوية التى استخرجناها من شعر أبى نواس حيث جعلها أبونواس مظاهرَ بل رموزاً للبداوة، وهذا لا يعنى أنها لا توجد فى الحضارة الحديثة بل يعنى أن الشاعر جعلها رمزاً للحياة البدوية لحضورها الفعّال فى مضمار حياتهم، إذ منها ما زالت قائمة بين الحضريين مثل اللبن والحليب الذى لا يقتصر على من يعيش فى البادية دون غيرهم أو بعض أسماء العربيات التى تستعمل حتى زمننا الراهن.

وإذا ننظر نظرة عابرة بهذه الأبيات المختارة نجد أبا نواس يعلن تمرده على كل من يستخدم قوالب القدماء وطريقتهم من معاصريه، فيكثر من استخدام أساليب الإنشاء الطلبى مثل (دَع – خلِّ- لا تبكِ-سقياً- عَدِّ و...)، ومن المحتمل أيضا أن يكون هذا الأسلوب الخطابى متأثرا بأسلوب القدماء الشعرى فى خطابهم لمن يصحبهم فى رحلتهم الشعرية كما قال امرؤالقيس:

قفا نبک من ذکر حبیب ومنزل بسقط اللوی بین الدخول فحومل

ولكن أبونواس استخدم هذا الأسلوب فى اتجاه معاكس، فأخذه منهم عليهم، وهو عدم الوقوف وعدم البكاء عليها.

أو يمكننا أن نؤوّله على الأسلوب المونولوجى، لكنّه لا ينافى أن يكون مخاطب مثل هذه الأبيات الشعراءَ المتعصبين للمنهج الشعرى القديم فهو من خلال التصريح لأبرز عناصر الحياة الجاهلية ثم رفضها واحدة بعد أخرى، كأنّه بذل غاية جهده فى أن يجهر بدعوته وتفصيلها وشرحها بصورة دقيقة حتى لا يبقى أى مجال لريب الشاكين، وسؤال السائلين، وردع الرافضين.

والدليل على قولنا هذا، ما قاله فى الأبيات التالية وهو يحدّد مخاطبه الخاص تحديداً:

صِفَةُ الطُلولِ بَلاغَةُ القِدمِ فَاجعَل صِفاتَکَ لِابنَةِ الکَرمِ
فَعَلامَ تَذهَلُ عَن مُشَعشَعَةٍ وَتَهيمُ فى طَلَلٍ وَفى رَسمِ
تَصِفُ الطُلولَ عَلى السَماعِ بِها أَفَذو العِيانِ کَأَنتَ فى العِلمِ؟
وَإِذا وَصَفتَ الشَيءَ مُتَّبِعاً لَم تَخلُ مِن غلط وَمِن وَهمِ

(المصدر نفسه: ٣ /٢٦٦)

www.SID.ir

Archive of SID

فإن الوهم واللبس والخطأ هی کلها حصیلة عمل من یتبعّ القدماء تقلید الأعمی، إذ یکتب عمّا سمعه من القدماء، ولا یکتب عمّا شهده بنفسه.

ب: العناصر المستحدثة فی فاتحة القصائد النواسیة

یتمرّد أبونواس علی العناصر الشعریة القدیمة، فعلی مذهبه الشعری الجدید تستبدل تلک العناصر بعدد من عناصر الحضارة الحدیثة، ومن أهمّ هذه المستبدلات هی الخمر، وما یتعلق بها حیث یقول:

لا تَبکِ رَبعاً عَفا بِذی سَلَمِ   وَبَزَّ آثارَهُ یَدُ القِدَمِ
وَعُج بِنا نَجتَلی مُخَدَّرَةً   نَسیمُها ریحُ عَنبَرٍ ضَرِمِ

(المصدر نفسه: ٣/ ٢٨٥)

یدعو أبونواس الشاعر الباکیَ علی الأطلال إلی أن یماشیه فی اتجاه الخمر التی تعبق منها رائحة طیبة کرائحة العنبر، ویتغنی بالورود والزهور الحضریة أمثال النرجس والآسولا "عرفج" و"شیح" و"قیصوم" وأمثالها التی تنبت فی البوادی والصحاری. ویظهر حقده علی الأعراف الجاهلیة الخرافیة مثل التشاؤم بالغراب فیتوّلی وجهه جانب الخمر وتقالیدها، وعلی دأبه فی معظم القصائد یدعو صاحبه باتّباعه فی هذا الطریق معرضاً عن البیداء والصحراء ومتعلقاتها إلی المدینة والحضارة وما تشتمله:

إبخَل عَلی الدارِ بِتَکلیمِ   فَما لَدَیها رَجعُ تَسلیمِ
وَالعَن غُرابَ البَینِ بَغضاً لَهُ   فَإِنَّهُ داعِیَةُ الشومِ
وَعُج إِلی النَرجِسِ عَن عرفَجٍ   وَالآسِ عَن شیحٍ وَقَیصومِ
وَاغدُ إِلی الخَمرِ بِآیینِها   لا تَمتَنِع عَنها لِتَحریمِ
فَمن عَدا الخَمرَ إِلی غَیرِها   عاشَ طَلیحاً عَینَ مَحرومِ

(المصدر نفسه: ٣/ ٢٨٥)

أو نلفی أبانواس یوازن بین العیش فی البادیة وملحقاتها، وبین إیوان کسری الذی یعدّه من مظاهر الحضارة الحدیثة:

ذاکَ العَیشُ لا خِیَمُ البَوادی   وَذاکَ العَیشُ لا اللَبَنُ الحَلیبُ

www.SID.ir

Archive of SID

فَأَينَ البَدو مِن إيوانِ كِسرى وَأَينَ مِنَ المَيادينِ الزُروبُ

(المصدر نفسه: ٣/ ٥٦)

ويفضّل الثانية تمجيداً لشأنه باستخدام مكرّر لاسم إشارة البعيد (ذاک) وكذا ما وجده من البون الشاسع بين الأولى والثانية من خلال تعبيره بـ"أين البدو من إيوان كسرى" و"أين من الميادين الزروب" فهذا يماثل "أين الثرى من الثريا".

وفى ردّ على من قال بأن هذا البيت يظهر شعوبية أبى نواس (الحاوى، ١٩٨٧م:١/ ٥٤)، فليس هذا إلّا تجسيداً وتمثيلا للحضارة الحديثة التى تبدو فى معظم جوانبها استنساخاً من الحضارة الساسانية لاسيما فى بناء بغداد على شاكلة المدائن، وكذا قصور الخلفاء على منوال قصور الأكاسرة.

وما يدفع أبانواس إلى المقارنة بين البداوة والحضارة هو ليس النزعة الشعوبية، وإنما هو النزعة الحضارية وهذه الأبيات شاهد لما ندّعيه:

بِحَيثُ لا تَجلِبُ الفِجاجُ إِلى أُذنَيکَ إِلّا تَصايُحَ النَقَدِ
أَحسَنُ عِندى مِنَ انكِبابِکَ بالـ فِهرِ مُلِحّاً بِهِ عَلى وَتَدِ
وُقوفُ رَيحانَةٍ عَلى أُذُنٍ وَ سَيرُ كَأسٍ إِلى فَمٍ بِيَدِ
يَسقيكَها مِن بَنى العِبادِ رَشاً مُنتَسِبٌ عيدُهُ إِلى الأَحَدِ

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٣/ ١١٠)

فيقوم الشاعر بالموازنة بين عدد من عناصر البداوة والحضارة منها: زهور صحراويةٌ تستحيل أن يعلّقها شخصٌ على أذنيه لتشقّها، بينما هو من عادة الحضريين فى مجالس الخمر تعليق الريحانة على آذانهم، والأهمّ فى هذه الأبيات هو تأكيد الشاعر على يوم الأحد الذى يعتبر من أعياد المسيحية أو بعبارة أخرى قارن أبونواس بين البداوة وبين الحضارة المزيجة بالحضارات الأخرى، وقصده هنا ليس إلّا الحضارة المسيحية، فليس لنا أن نحسب مثل هذه المقارنات والموازنات النواسية من قبيل النزعات الشعوبية.

وقد نلفى أبا نواس لا يلتزم فى مقدمات بعض مدائحه بقضايا التجديد الشعرية، بل كان يتردد فيها بين المذهب القديم والجديد، فهو أحياناً يمدح هارون الرشيد على الطريقة القديمة فيذكر الأطلال، ويصف راحلته التى أوصلته إلى الممدوح، وما إلى ذلک

www.SID.ir

Archive of SID

من قصائد يحافظ فيها على التقاليد القديمة كما فى مديحته لهارون الرشيد مطلعها:

حَيِّ الدِيــارَ إِذِ الزَمانُ زَمانُ وَإِذِ الشِباكُ لَنا خَوىً وَمَعانُ

(المصدر نفسه: ١/١١٣-١١٥)

أو فى قصيدة يمدح فيها الخليفة الأمين:

يــا دارُ ما فَعَلَت بِــكِ الأَيّامُ ضامَتــكِ وَالأَيّامُ لَيسَ تُضامُ

عَرَمَ الزَمانُ عَلى الّذين عَهِدتُهُم بِــكِ قاطِنينَ وَلِلزَمــانِ عُرامُ

(الحاوى، ١٩٨٧م: ٢/٣٦٨)

و إذا ما ســئل ســائل هل ما كان أبونواس يعتقد بما صرّحه وصاحه من التجديد فى الشــعر العربى أو كان قد حالت دون تحقيق أمنيته حواجزاً ما؟ فقد تكون إجابته فيما يلى.

الدواعى النواسية فى الثورة التجديدية

اتخّذ الدارسون فى العصر الحديث مواقف نقيضة من ثورة أبى نواس الشعرية فمنهم من يعتقد أن مذهبه الجديد ليس مذهباً شعرياً وفنياً فحسب، بل هو مذهبٌ شعوبى أيضاً، إذ كانت غايته إعلاء الفرس، ورفعهم، والحطّ من شأن العرب، وتحقيرهم ومنهم من دافع عن أبى نواس وعدّ ثورته التجديدية ثورة حضارية بحتة.

وعلى رأس الفريق الثانى، الدكتور شوقى ضيف الذى يخففّ عنه تهمة الشعوبية قائلا: «وأبونواس لا يشغب على العرب شغبَ الشعوبية كشعوبية بشار، فشعوبيته من لون آخر، ذلک أنه لا يوازن بين الخشــونة وحضارة الفرس كما يصنع بشــار، وإنّما يوازن بين تلک الخشــونة والحضارة العباســية المادّية، وما يجرى فيها من خمر ومجون كان يعكف عليها عكوفــاً، ويأخذ ذلک عنده شــكل ثورة جامحة على الوقوف بالرســوم والأطلال وبكاء الديار ودعوة حارّة إلى المتاع بالخمر.» (ضيف، ١٩٨٠م: ٣/٢٣١) على شاكلة قوله:

كم بين ناعتِ خمرٍ فى دساكرهِ وبين باكٍ عل نوءٍ ومنتضدِ

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٣/١١٦)

ومــن الباحثين الذين دافعوا عن أبى نواس ونزعته التجديدية هو الدكتور حســين

www.SID.ir

Archive of SID

عطوان حيث يعلّق على هذه الظاهرة بقوله: «إنّ دعوته إلى الجديد كانت ثورة حضارية خالصة لا تشوبها شائبة من شعوبية وغير شعوبية، وإنّما هى دعوة لمعاصريه من الشعراء كى يكونوا صادقين مع الناس صدقهم مع أنفسهم وحياتهم، فكيف يصفون مناظر الأطلال ومشاهد الصحراء، وهم بعيدون كل البعد عنها.» (عطوان، ١٩٧٤م: ١١٣)

وكذا لا غرو إذا ما ندعى أن أبانواس قد فطن بأن الالتزام بالمقدمات الطللية رمزٌ خفى للحضارة العربية وما يتبعها من العصبية العربية والتمييز بين الجنس العربى وسائر الأجناس غير العربية الدخيلة فى نطاق الحكم الإسلامى، وقد وعى بأن الخلفاء لاسيما الرشيد العباسى يتمسكون بهذه المقدمة وهذا التقليد الشعرى باعتبارها سبباً من أسباب توطيد حكمهم العربى الذى وقع فى وجه عاصفة حضاريةٍ أخذت تهبّ على العناصر العربية الخالصة والعصبية العربية، وكأنهم صاروا بمثابة "غريق يتشبث بكل حشيش" كى يسلموا ممّا حمّل عليهم دوران الدهر.

يبدو تماماً بأنّهم لم يكونوا راضين بنفوذ العناصر غير العربية فى نطاق حكمهم، والدليل على ذلک ما فعلوه بالنسبة لأبى مسلم الخراسانى والبرامكة، لكنهم اضطروا بهذا التحول الجذرى لأجل اتّساع منطقة نفوذهم، تنوع الثقافات والحضارات التى كانت تتطلّب حكماً يتسّع لهذه كلها ويرضاها، فأضحوا مضطرّين باستسلامهم إزاء التغيرات والتحولّات الطارئة فى المجتمع.

فقد اصطبغ اتّباع منهج القدماء فى الأدب بصبغة أرستقراطية من قبل الحكومة، إذ هى تحافظ على الرؤية الجنسية فى الأدب، والتى تغلّل أجنحة خيال الأديب، وتقيدها، وتحول دون تحليقه فى سماء الخيال بأحاسيسه ومشاعره الواقعية.

وأبونواس الشاعر العبقرى الواعى لا يستثنى من هذه القاعدة الهامة، وهو يسعى بأن يحطّم هذه القيود والأغلال أينما كانت، لاسيما أنّه شيعىٌ، وكثيرٌ من مواقفه السياسية والأدبية والاجتماعية ينشأ من نزعته إلى نزعته الشيعية، وهى مذهب رفض النظام الفاسد وهو طريقة من لا يخضع للنفاق والكذب، «ولا يمثل تشيعه دعوة إلى التعصب أو التمذهب، بل كان وسيلة لإذكاء شاعرية تحرّک كوامنها مواقفُ الرفض والثورة، ووسيلة للتلاحم مع قضايا التحرر الإنسانى والفكرى، وموقفاً يجسّد من خلاله مبادئ التمرّد

www.SID.ir

Archive of SID

والثورة التى تبنّته الشـيعة وعلى الدوام.» (الزعيم،١٩٨١م: ٦٣) أو «نزعة أبينواس إلى التجديد كانت مجرد نزوة يراد بها التخلص من أثقال الأرسـقراطية المتعرجفة.» (زكى، ١٩٧١م: ١٦٩)

فليس لنا إلّا أن نمعن فى قراءة النص النواسى، وأن نجعل الظروف السياسية والاجتماعية القائمة على هذه الفترة نصب أعيننا، فنفتح عقولنا وقلوبنا على استقرائنا الحديث للقضايا والأبحاث التى قد تبدو بديهية للوهلة الأولى، فنخلع أزياء الأفكار السطحية والأحاديث المكرّرة من قامتها، ونلبس عليها أزياء حديثة، وإن قد لا تكون أنيقا وشيقاً. فإن الظروف القائمة فى المجتمع قد حدت بأبى نواس إلى أن يتفاعل معها، فتارة يتخذ المجون سـتاراً على معتقداته الدينية الشـيعية وقناعاته الإنسانية الحرّة، وتارة أخرى يثور ويهجم على أصول القصيدة العربية، فهـو يغتنم الفرص لإبراز وجوده الفردى والاجتماعى، وإخراج مواهبه وأفكاره فى مجال تحقيق الحرية والديموقراطية فى مجتمعه آنذاك.

ومن هذا المنطلق، نجد أبانواس يبدأ مدحه فى الرشيد العباسى بمقدمة تقليدية قصيرة يذكر فيها الأطلال، وكأنّه إغواء منه للرشـيد العباسى، بينما هو يضمر رغبته فى التمرّد علـى المنهج القديم، واسـتبداله بمذهبه الجديد، فقد بيدوأنـه كان متردداً حذراً فى مدح الرشـيد على المذهب الجديد. هذا، إلى ما رُوى عن عيسـى بن عبد العزيز بن سـهل الحارثى أنّ «كان الرشـيد لا يسمع من الشـعر ما فيه رفث ولا هزل، وكان لا يذكر فى تشـبيب مدحه قُبلـة ولا غمزةً.» (الديـوان، ٢٠٠٢م: ١/ ١٢٧)، لكن أبونواس لم يطق صبراً من أن يغمض عينيه على ما يتمنّاه، فاتّخذ تلك الطريقة فى هذه القصيدة وهى:

لَقَد طالَ فى رَسمِ الدِيارِ بُكائى ... وَقَد طالَ تَردادى بِها وَعَنائى
كَأَنّى مُريـغٌ فى الدِيارِ طَرِيدَةً ... أَراهـا أَمامى مَـرَّةً وَوَرائى
فَلَمّا بَدا لى اليَأسُ عَدَّيتُ ناقَتى ... عَنِ الدارِ وَاستَولى عَلَىَّ عَزائى
إِلى بَيتِ حـانٍ لا تَهُرُّ كِلابُهُ ... عَلَىَّ وَلايُنكِـرنَ طُولَ ثَوائى

(المصدر نفسه: ١٢٦/١)

وبعـد أبيات قليلة من هذه المقدمـة التى يجرى فيها أبونواس على مذهب الأقدمين، فلمّا بلغ وصفه للخمر يفاجئ الرشيد بهذه الأبيات:

www.SID.ir

Archive of SID

فَإن تَكُنِ الصَهباءُ أودَت بِتالِدى | فَلَم توقِنى أُكرومَتى وَحَيائى
وَكَأسٍ كَمِصباحِ السَماءِ شَرِبتُها | عَلى قُبلَةٍ أو مَوعِدٍ بِلِقاءِ
أَتَت دونَها الأَيّامُ حَتّى كَأَنَّها | تَساقُطُ نورٍ مِن فُتوقِ سَماءِ
تَرى ضَوءَها مِن ظاهِرِ الكَأسِ ساطِعاً | عَلَيكَ وَإِن غَطَّيتَها بِغِطاءِ

(المصدر نفسه: ١/ ١٢٧)

ويبدو أن هذا المذهب الجديد فى شعر المديح قد صدم الشعور الدينى عند هارون، إذ يذكر لنا الرواة أن وجهه قد تغير عند سماع تلك الأبيات فى وصف الخمر وذكر الحان، وأراد أن يأمر بأبى نواس لو ما انتقل إلى مديحه الذى سرّ الخليفة:

تَبارَكَ مَن ساسَ الأُمورَ بِعِلمِهِ | وَفَضَّلَ هاروناً عَلى الخُلَفاءِ

(المصدر نفسه: ١/ ١٢٧)

ويظهر أنّ هذه المديحة، كانت أول قصيدة من قصائده على المذهب الجديد، فأعلنها فى حضرة الرشيد، ومدح بها الخليفة الرشيد العباسى، ولكن أرستقراطية الحكم تحكم عليه ماذا يفعل، وماذا لا يفعل، وإلّا فيصاب بما لا يرضيه:

أَعاذِلَ لا أَموتُ بِكَفِّ ساق | وَلا آبى عَلى مَلِكِ العِراق
هَجَرتُ لَهُ الَّتى عَنها نَهانى | وَكانَت لى كَمُمسِكَةِ الرِماقِ
فَأَصبَحتُ اعتَجَرتُ عَلى مَشيبٍ | وَوَقَّرَنى الخَليفَةُ عَن نِزاقى

(المصدر نفسه: ٣/ ٢١٦-٢١٨)

ولا يستبعد إذا ما يحمَّل على "أعاذل لا أموت بكفّ ساق" الموت الذى من المحتمل، أن يحدث جرّاء وصفه للخمر، وهو يتعاطيها فى كبر سنّه، ويبدو أنّ أبانواس من الواجب عليه أن يتّبع ما يأمره الخليفة به، ويجتنب ما ينهاه عنه فى سلوكه وتصرّفاته رغم رغبته فى ذلک.

ومع ذلک كلّه، فلم يأل أبونواس جهده فى تحطيم سطوة الخليفة، وبذل قصوى جِدّه فى انتهاک أرستقراطية الحكم بوعيه ودهائه، وإن تعرّض إلى تهديدات بالحبس أو القتل كما عرفناه من خلال هذه القصيدة وما ورد فى المصادر التاريخية من أنّه قد حُبس دفعات عديدة لأجل شعره الذى لم يرضِ الخليفة لا سيما الرشيد.

www.SID.ir

Archive of SID

ومن أسباب وجود المقدمات التقليدية فى بعض مدائح أبى نواس مع أنه يدعو إلى التجديد، هو أنّ النص النواسى هو مرآة لواقع مجتمعه فى مختلف أبعاده، فإذا نفاجئ بالمقدمة الطللية فى مدائحه، فهذا يدّلنا إلى سيادة الأرستقراطية فى المجتمع العباسى بمثابة ظاهرة هامة فيه لاسيما فى فترة حكم الرشيد العباسى، بالقياس إلى فترة الأمين إذ تكاثر عدد هذه المقدمات الطللية فى مدح الرشيد كما تكاثرت المقدمات التجديدية فى فترة الأمين العباسى.

ومع تقلص ظلّ الأرستقراطية فى فترة الأمين العباسى، وجد أبونواس الفرصة سانحة للخروج على المذهب القديم فى المدح، وكان أول قصائده فى مدح الأمين، يوم تهنئته بالخلافة على المذهب الجديد، فقدّم لها تمهيداً واعياً يبين فيه فسادَ المذهب القديم فى المدح بالصراحة، وينقله لنا حمزه الإصفهانى فى شرح ديوان أبى نواس قائلاً: «الأمين العباسى جلس يوماً لعامة فدخل عليه القوّاد والأولياء على منازلهم ومراتبهم، فلمّا استقّر به المجلس والمقام قام الخطباء فخطبوا، والأشراف فنشروا، والشعراء فمدحوا ووصفوا حتى قام آخرهم، أبونواس، قال امير المؤمنين إن الشعراء والملوك قبلى شبّوا بالمَدَر والحَجر والشاء والبَقر والصوفِ والوَبَر فغلظت طباعهم واستغلقت معانيهم ولا بَصَر لهم بامتداح خلفائنا، إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى الإنشاد فقال: قد أذنّا لک. فأنشده ما مطلعه:

ألا دارها بالماء حتى تلينها فلن تُكرّمَ الصهباء حتى تهينها»

(الديوان، ٢٠٠٢م: ١/ ١٣٦)

وحين استشعر أبونواس برضى الخليفة فى مذهبه الجديد، فتقدّم خطوات واسعة فى قصيدة تالية، فمزج وصف الخمر بالغزل المذكر فقال:

يَسقيكَها ذو قُرطَقٍ يُلهى وَيُعجِلُ مِن حَبَس
خَنِثُ الجُفونِ كَأَنَّهُ ظَبيُ الرِياضِ إِذا نَعِس
أَضحى الإِمامُ مُحَمَّدٌ لِلدينِ نوراً يُقتَبَس

(المصدر نفسه: ١/ ١٣٩)

وإن نتدقق فى هذه الرواية فنستكشف نقطتين هامتين منها، أولهما: إن المقدمة

www.SID.ir

Archive of SID

التقليدية قد غدت بعداً من أبعاد الحكم الأرستقراطى فى المجتمع العباسى حيث قام بها الطبقات العليا والوسطى من المجتمع من الأشراف والخطباء والشعراء، فقد وصف أبونواس القائلين بها بالملوك إذ أنهم يحافظون على هذا البعد الأرستقراطى كما يفعل الملوك ومن يحكمون على الناس.

ثانيهما: إن أبا نواس يدين هؤلاء الشعراء بأنّهم "لا بصر لهم بامتداح خلفائنا". فلربما هو أراد من هذه العبارة بأنهم لا يعرفون الخليفة ورغباته، ولا يماشون مقتضيات تلك الفترة التى يعيشون فيها هم والخليفة، إذ لا يميزون بين تلك الفترة المتصّفة بالمَدَر والحَجَر والشاء والوَبر، وبين هذه الفترة المتصفة بألوان جديدة من الحضارة والثقافة التى تتطلّب الحداثة فى شعرهم. ثمّ "بخلفائنا" قد يكون تأكيداً منه على ضرورة الجِدّة والطَراوة فى الشعر حسب مقتضيات اليوم.

ومن الأجدى فى هذا المجال أن نضيف إلى كل ما قلناه عن مذهبين القديم والجديد موقف العلماء والرواة والمتعصبين بالقديم فى تلك الفترة، والذى اتّسم بالتعصب والجمود، ولا يعترف بتطور المجتمع وتحوّله، وقد هاجم ابن قتيبة أمثال هؤلاء العلماء والرواة فيما رأى من بعضهم يستجيدون الشعر السخيف لتقدّم قائله ويرذلون الشعر الرصين لكونه محدثاً. (ابن قتيبة، ١٩٣٢م: ٦)

فنجد العلماء والرواة لا يعدّون الشعر شعراً إلّا إذا كان جارياً على النظام القديم أى فى إطار عمود الشعر ونهج القصيدة العربية، ولكن المحدثون خرجوا عليها، ولو أنّنا قارنّا بين النهج القديم والنهج الحديث يتبين لنا أهمية ما دعاه الشعراء المحدثون بالثورة على الأطلال وقيمته، بالرغم من المعارضات القوية التى لقيتها دعوتهم من العلماء والرواة المتمسكين بالمنهج القديم الذين لم ينحادوا عن موقفهم، وما خضعت أفكارهم لما حدث فى المجتمع من التغيرات والتحوّلات.

ويظهر تمام الظهور أن أبانواس لم يفتتح قصائدة بقدمات تقليدية طواعيةً بل هو وجد نفسه فى معظم الأحيان لابّد أن يكون سامعاً ومطيعاً وخاضعاً لقرود زمنه:

هذا زمان القرود فاخضع وكن لها سامعا مطيعاً

(الديوان، ٢٠٠٢م: ٦٠/٢)

www.SID.ir

Archive of SID

النتيجة

– إن النزعة الشـيعية النواسـية التى بُنيت على مواقف الرفض والثورة، قد تركت تأثـيراً ملحوظاً فى موقفـه التجديدية للأدب، وحدت به إلى تلاحـم مع قضايا التحرر الإنسـانى والفكرى، لاسـيما أنّه عاش فى فترة حكم فيها الخلفاء العباسيين الحاقدين على العلويين، وصار اتّباع منهج القدماء فى الأدب يصطبغ بصبغة أرسـتقراطية من قبل الحكومة.

– يمثل أبونواس فى شـعره النزاع القائم بين العلماء المتعصبيين وبين المجدّدين خير تمثيـل، ولا يتخلّى عن هذه الظاهرة الاجتماعية الهامة التى احتلّت مسـاحة كبيرة من القضايا الاجتماعية آنذاك. وتلك التناقضات والتعارضات التى نشهدها بين أبى نواس باعتبـاره مـن المجددّين وبين العلماء المتعصبين المتتبعين للنهـج القديم هو قوام الطاقة المحرّكـة للأدب تجاه إزدهاره وتطـّوره فى العصور التالية، وقد تكون بمثابة مقدمة لظهور شعر الحر وتأسيس مدارس أدبية أخرى.

– إن موقف الرشيد الأرسـتقراطى من الشعر والشعراء عموماً وفى النص النواسى على الخصوص، تأكيده على احتفاظ الشـعراء بالمنهج القـديم، وضغطه عليهم للالتزام بهذه السـنة الشـعرية يعدّ من إحدى أسـباب ظهور النزعة التجديدية الشعرية . وكأن هذا الإلحاح من الخليفة العباسـية قد ظهرت آثاره فى أوائل المحاولات التجديدية لأبى نواس وفى زمن الرشـيد العباسى نفسـه، وقد أعطى ثمارَه فى زمن الأمين، إذ نواجه فيه كثرة المقدّمات الغزلية الجديدة فى فواتح المدائح النواسية.

– ومن أهمّ المؤثرات السوسـيولوجية فى وقوع النزعة التجديدية النواسية هى كما يلى:

الف– تضاد القيم والمعايير الاجتماعية القديمة والحديثة وعدم تطابق الإيدئولوجية القديمة والظروف الراهنة وعدم توافقهما –الذى يحول دون تقدّم الإنسان– عند المثقفين فى المجتمع، فإن ظهور الشعراء الموّلدين الذين أضحوا يشكلون نسبة عالية من الشعراء، صـارت بمثابة قوة دافعة شـديدة لحركة التجديد فى الشـعر فى أواخـر العصر الأموى،

www.SID.ir

Archive of SID

وتواصلت بقوة أكثر فى العصر العباسى الأول لشدة الدوافع والمؤثرات الاجتماعية فى هذه الفترة –من نفوذ البرامكة الفرس فى نظام الحكم العباسى وتصرفهم فى الشؤون المالية والاقتصادية للحكومة وما إلى ذلک– لفقدان اى علاقة عاطفية بينهم ومجتمعهم الحضرى الراقى الذى يعيشون فيه وبين معالم الحياة الجاهلية من أطلال خربة ودمن بالية، خلافاً لشعراء العرب الذين يخضعون لعاطفتهم القوية التى تربطهم بموطنهم الأول، فكانوا يبكون الأطلال باعتبارها مظهراً بارزاً من مظاهر وطنهم القديم.

ب– حدوث تغييرات سريعة فى المجتمع حيث أدّى إلى عدم الانسجام بين النظام الاجتماعى الحضرى والحكومة العباسية التى لا تزال تلح على المقدمات التقليدية فى الشعر.

ج– التضاد إثر نشوء الطبقات الاجتماعية الجديدة وتغيرات سريعة جاءت تِلو امتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأخرى وهذا كان يتطلب ايدئولوجيات تختلف عما كان فى السابق .

د– دخول القيم والحوائج الجديدة فى المجتمع العباسى، دون أن تملک الطبقة المثقفة لاسيما معظم الشعراء المولّدين آلية يستمدّون بها فى تحقيق تلک الغايات، فإنّ الحداثة فى الحياة تدعو حداثة فى الآليات والأدب أيضاً، إذن هم يشعرون بالاستياء ويقومون بما يغاير النظام التقليدى ويثورون عليه.

المصادر والمراجع

ابن قتيبه، ابو محمد عبد الله بن مسلم. (١٩٣٢م). الشعر والشعراء. مصر: المعاهد.

ابن المعتز، عبدالله بن محمد. (١٩٥٦م). طبقات الشعراء. مصر: دار المعارف.

أبوشقراء، محيى الدين يوسف. (٢٠٠٥م). مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربى. ط١. بيروت: المركز الثقافى العربى.

اسكاربيت، روبير. (لاتا). سوسيولوجيا الأدب. ترجمة: عرمونى، عطوان. بيروت: منشورات عويدات.

أبونواس، الحسن بن هانئ. (٢٠٠٢م). الديوان. شرح حمزه اصفهانى. تحقيق: غريغور شولر. ط١. بيروت: دار المدى.

www.SID.ir

Archive of SID

الحاوى، ايليا. (١٩٨٧م). شرح ديوان أبى نواس. بيروت: منشورات الشركة العالمية للكتاب.
بركات، وائل وآخرون. (٢٠٠٤م). اتجاهات نقدية حديثة ومعاصرة. دمشق: منشورات جامعة دمشق.
بروكلمن، كارل. (١٩٦١م). تاريخ الأدب العربى. ترجمة: عبد الحليم النجار. القاهرة: دار المعارف.
حسن، عزة. (١٩٦٨م). شعر الوقوف على الأطلال، من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث دراسة تحليلية. دمشق: طبعة الترقى.
حسين، طه. (١٩٣٧م). حديث الأربعاء. مصر: البابى.
حجازى، سمير سعيد. (٢٠٠٧م). مناهج النقد الأدبى بين النظرية والتطبيق. ط١. القاهرة: دار الآفاق العربية.
خريس، حسين. (١٩٩٤م). حركة الشعر العباسى فى مجال التجديد بين أبونواس ومعاصريه. ط١. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
الزبيدى،على. (١٩٦٦م). «التجديد بين الشعر العباسى والشعر المعاصر». الآداب. السنة الرابعة عشرة. العدد الثالث. صص: ٤٧-٤٠.
الزعيم، أحلام. (١٩٨١م). أبونواس بين العبث والاغتراب والتمرّد. ط١. بيروت: دار العودة.
زكى، كمال. (١٩٧١م). الحياة الأدبية فى البصرة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى. القاهرة: دار المعارف.
ضيف، شوقى. (١٩٨٠م). تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأول). ط٦. مصر: دار المعارف.
عطوان، حسين.(١٩٧٤م). مقدمة القصيدة العربية فى العصر العباسى الأول. مصر: دار المعارف.
عزيز الماضى، شكرى. (١٩٨٦ م). فى نظرية الأدب. ط١. بيروت: دار الحداثة.
هدارة، محمد مصطفى. (١٩٦٣م). اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى. القاهرة: دار المعارف.
جمعة،حسين. (١٩٩٨م). «شعرنا القديم صورة ودلالة». مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية. المجلد ١٤. العدد الأول. صص: ٧٠-٩.
السامرايى، يونس أحمد. (١٤٢٦ق). «ثقافة الشاعر العباسى الشعرية». المورد. المجلد الثانى والثالث. العدد١. صص: ١٧-٤.
هادى پور نهزمى، يوسف. (١٣٩٠ش). «أبونواس بين مطرقة الحكام وسندان التاريخ». مجلة أدب عربى. جامعة طهران. الرقم الثالث. ص: ٦٧-٤٧.
الشتيوى، صالح على سليم. (٢٠٠٤م). «ظواهر من التمرّد فى شعر العصر العباسى الأول».

www.SID.ir

Archive of SID

مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية. المجلد ٢٠. العدد (١+٢). صص: ١٩٩-٨٥.

www.SID.ir